****

[](http://www.alukah.net/)

**المقاصد العلمية والعملية**

**في سورة القلم**

**تأليف**

**محمد بن أحمد رفيق**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا الصادق الأمين، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فبعد أن تمّ نشر "المقاصد العلمية والعملية في سورة العلق" على شبكة الألوكة، ها أنا ذا أزفّ إليكم المقاصد العلمية والعملية في سورة القلم. فإن سأل سائل: ولم سورة القلم وليس سورة غيرها؟ فالجواب: لأن الغاية من هذا النمط من التفسير حسب ترتيب النزول، إنما ليكون منهجا تربويا تدريجيا للسير على منهاج النبوة، أخذا بقلوب الناس رويدا رويدا، ودرجة درجة، بدءًا بالإيمان الراسخ، والأخلاق الحسنة، واليقين الجازم بالغيبيات... إلى تنزيل الأحكام الشرعية، التي يرضخ لها القلب المليء بالإيمان.

وحتى لا أطيل على القارئ، فها هي وقفات وخواطر، جمعت فيها من أقوال السلف والخلف ما يساعد العقلية المعاصرة على فهم مقاصد هذه السورة لتنزيلها على واقع نفوسنا ومجتمعنا، راجيا من الله تعالى أن يوفقني لإتمام كل السور على هذا المنوال.

**وكتبه: محمد بن أحمد رفيق**

**الدار البيضاء / المغرب**

**﴿ سورة القلم ﴾**

**﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾**

**﴿**  **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42)** **خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52) ﴾**

**التعريف بالسورة وما جاء فيها من أخبار صحيحة**

سورة ن. وتسمى: القلم. مكية إجماعاً.

قال الأصفهاني: وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن فيها من المدني: ﴿ إنا بلوناهم ﴾، إلى قوله: ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾.

وقوله: ﴿ فاصبر ﴾، إلى قوله: ﴿ من الصالحين ﴾.

وقال أبو حيان: ومعظمها نزل في الوليد بن المغيرة، وأبي جهل بن هشام.[[1]](#footnote-1)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «سورة (ن) هي سورة «الخلق»، الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى فيها: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ قال ابن عباس: على دين عظيم».[[2]](#footnote-2)

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: «سُمّيت هذه السورة في معظم التفاسير وفي «صحيح البخاري» سورة ن والقلم. على حكاية اللفظين الواقعين في أولها، أي سورة هذا اللفظ.

وترجمها الترمذي في «جامعه» وبعض المفسرين: سورة ن. بالاقتصار على الحرف المفرد الذي افتتحت به. مثل ما سميت سورة ص. وسورة ق.

وفي بعض المصاحف سميت: سورة القلم. وكذلك رأيت تسميتها في مصحف مخطوط بالخط الكوفي في القرن الخامس.

وهي مكية، قال ابن عطية: لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل.

وذكر القرطبي عن الماوردي: أن ابن عباس وقتادة قالا: أولها مكي، إلى قوله: ﴿ على الخرطوم ﴾ [القلم: 16] ومن قوله: ﴿ إنا بلوناهم إلى لو كانوا يعلمون ﴾ [القلم:17- 33] مدني، ومن قوله: ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم إلى قوله: فهم يكتبون ﴾ [القلم: 34- 47] مكي ومن قوله: ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ إلى قوله: ﴿ من الصالحين ﴾ [القلم:48- 50] مدني، ومن قوله: ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ﴾ [القلم: 51] إلى آخر السورة مكي.

وفي «الإتقان» عن السخاوي: أن المدني منها من قوله: ﴿ إنا بلوناهم إلى لو كانوا يعلمون ﴾ [القلم: 17- 33] ومن قوله: ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ إلى قوله: ﴿ من الصالحين ﴾ [القلم: 48- 50] فلم يجعل قوله: ﴿ إن للمتقين عند ربهم ﴾ إلى قوله: ﴿ فهم يكتبون ﴾ [القلم:34- 47] مدنيا، خلافا لما نسبه الماوردي إلى ابن عباس.

وهذه السورة عدها جابر بن زيد ثانية السور نزولا قال: نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك وبعدها سورة المزمل ثم سورة المدثر، والأصح حديث عائشة «أن أول ما أنزل سورة اقرأ باسم ربك ثم فتر الوحي ثم نزلت سورة المدثر».

وما في حديث جابر بن عبد الله «أن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحي» يحمل على أنها نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك جمعا بينه وبين حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي «تفسير القرطبي»: أن معظم السورة نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل.

واتفق العادون على عد آيها ثنتين وخمسين».[[3]](#footnote-3)

**شرح بعض الكلمات الواردة في السورة**

قال قتادة: ﴿ حرد ﴾ [القلم: 25]: «جد في أنفسهم».

وقال ابن عباس: ﴿ يتخافتون ﴾: «ينتجون السرار والكلام الخفي».

وقال ابن عباس: ﴿ لضالون ﴾ [القلم: 26]: «أضللنا مكان جنتنا» وقال غيره: ﴿ كالصريم ﴾ [القلم: 20]: « كالصبح انصرم من الليل، والليل انصرم من النهار، وهو أيضا: كل رملة انصرمت من معظم الرمل، والصريم أيضا: المصروم، مثل قتيل ومقتول».[[4]](#footnote-4)

قال البخاري رحمه الله: باب ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم: 13]

عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم: 13] قال: «رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة».

وعن معبد بن خالد، قال: سمعت حارثة بن وهب الخزاعي، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل، جواظ مستكبر».

باب ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ [القلم: 42]

عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقا واحدا»[[5]](#footnote-5).

**مناسبتها لما قبلها حسب ترتيب النزول:**

وجه المناسبة بين سورة القلم، وسورة العلق:

اختلف أهل التفسير في السورة التي نزلت بعد سورة العلق، فمِن قائل إنها سورة المدثر ـ كما رجح ذلك ابن عاشور وغيره ـ، ومِن قائل سورة الضحى، ومِن قائل سورة القلم، وهو الذي اطمأن له قلبي. إذ الناظر إلى مطلع السورتين ـ العلق والقلم ـ سيجد ذلك بينا واضحا لا يحتاج إلى كثر عناء. وإنما الذي جعل البعض يستبعد ذلك، ظنه أن سورة القلم نزلت جملة واحدة! والصواب أنه لم ينزل منها إلا الآيات الأولى فقط، تماما مثل أوائل سورة العلق.

وأيضا، مما زادنا يقينا كون مطلع سورة القلم هو ثاني ما أنزل بعد مطلع سورة العلق، هو وجه المناسبة بينهما[[6]](#footnote-6)، فمن ذلك:

أولا: المناسبة الظاهرة والبيّنة بين السورتين في الإشارة عند مطلع كل منهما إلى التعلم والعلم، وذلك بالتنويه بالقلم، وقيمته في طلب العلم. ففي العلق نقرأ قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: 1 - 5]. وهنا السورة نفسها اسمها «القلم»، وقد استهلت بالقسم به تعظيما له، لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة، ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف ـ كما قال الزمخشري ـ. وبما يُسطَّر به من العلوم النافعة، وعلى رأسها كتابة القرآن، فقال: ﴿ **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ [القلم: 1]. فالمناسبة ظاهرة لا تحتاج إلى مزيد بيان.

**ثانيا**: نحن لا ندري كم هي المدة التي مرّت بين نزول مقدمة «العلق» وبين نزول هذه الآيات من «القلم». فلا يستبعد أن بعد نزول الآيات الأولى من سورة العلق، انتشر الخبر بين قريش، فتناقلوه بينهم، وحينها بدأُوا برَمي النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون. فنزلت الآيات مسلّية لقلب الرسول تقول له: ﴿ **ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾. وذلك قبل الأمر بالصدع بالدعوة. أما بعدها فلا خلاف في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تعرّض للأذى والسخرية والتهديد، من صناديد الكفر بمكة.

**ثالثا**: قوله تعالى هنا: ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ يُذكِّرنا هذا بما ذكَرَتْه خديجة رضي الله عنها مِن حُسن خلقه صلى الله عليه وسلم فور تلقيه الآيات الخمس الأولى من سورة العلق. فإنها طمأنته بتعداد أوصاف خُلُقه العظيمة، قائلة: «أبشِر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم... «..الخ.

**رابعا**: نزل في «العلق» التهديد والوعيد بمن استغنى بماله فطغى وتجبر، وكذّب وتولى، وأعرض وتكبّر: ﴿ **كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) ﴾** إشارة إلى أبي جهل ومن على شاكلته.. وقال هنا: ﴿ **أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ** ﴾. فالمال والغنى والجاه من أول أسباب الطغيان. والإشارة هنا إلى ـ الوليد ابن المغيرة ـ وهو قرين أبي جهل ومن على شاكلتهما. كما وذكر سبحانه ندامة أصحاب الجنة: ﴿ **قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ** ﴾، إشارة وتنبيها لطغيان كفار قريش.

**خامسا:** لما قال في العلق: ﴿ **أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى** ﴾ .. قال هنا: ﴿ **فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [القلم: 44]. وقال في العلق: ﴿ **كَلَّا لَا تُطِعْهُ** ﴾، وقال في هذه: ﴿ **فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾[القلم: 8 - 14]. والتهديد واضح هنا في قوله تعالى: ﴿ **فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث**.. ﴾.. ونظيره في العلق: ﴿ **كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ** ﴾ [العلق: 15 - 18].

وهكذا، نلمس تناسبا واضحا بين السورتين، سواء في الأسلوب، أو في الأشخاص المعنيين بالآيات، مما يُطلعنا على ما كان يعانيه النبي صلى الله عليه وسلم في أول دعوته. والله أعلم.[[7]](#footnote-7)

**محور السورة وبعض مقاصدها وأغراضها**

يقول العلامة ابن عاشور رحمه الله عن أغراضها:

«جاء في هذه السورة الإيماء بالحرف الذي في أولها إلى تحدي المعاندين بالتعجيز عن الإتيان بمثل سور القرآن، وهذا أول التحدي الواقع في القرآن إذ ليس في سورة العلق ولا في المزمل ولا في المدثر[[8]](#footnote-8) إشارة إلى التحدي ولا تصريح.

وفيها إشارة إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله: ﴿ والقلم وما يسطرون ﴾ [القلم: 1] .

وابتدئت بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم تأنيسا له وتسلية عما لقيه من أذى المشركين.

وإبطال مطاعن المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم.

وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه، وضلال معانديه وتثبيته.

وأكد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة، فتضمن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم، لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم وإقبالهم على الكتابة والعلم، لتكون الكتابة والعلم سببا لحفظ القرآن.

ثم أنحى على زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمذمات كثيرة وتوعدهم بعذاب الآخرة وببلايا في الدنيا، بأن ضرب لهم مثلا بمن غرهم عزهم وثراؤهم، فأزال الله ذلك عنهم وأباد نعمتهم.

وقابل ذلك بحال المؤمنين المتقين وأن الله اجتباهم بالإسلام، وأن آلهتهم لا يغنون عنهم شيئا من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة.

ووعظهم بأن ما هم فيه من النعمة استدراج وإملاء جزاء كيدهم. وأنهم لا معذرة لهم فيما قابلوا به دعوة النبي صلى الله عليه وسلم من طغيانهم ولا حرج عليهم في الإنصات إليها.

وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر في تبليغ الدعوة وتلقي أذى قومه»[[9]](#footnote-9).

**الفوائد المستنبطة من السورة**

قال تعالى: ﴿ ن ﴾ [القلم: 1].

لقد تعددت التفاسير في معنى هذه الحروف المقطعة، ومنها ﴿ ن ﴾. وكل ما جاء من تفسير لمعناها لا يصح منه خبر مرفوع ولا أثر موقوف. وهذه أول سورة تستهل بحرف، وبعده قسم.

قال الإمام ابن عطية رحمه الله: «اختلف في الحروف التي في أوائل السور على قولين:

قال الشعبي عامر بن شراحيل وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: «هي سرّ الله في القرآن، وهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا يجب أن يتكلم فيها، ولكن يؤمن بها وتمرّ كما جاءت» .

وفي هذا يقول الإمام ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر أقوال العلماء: « وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه تركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها.

ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالى: ﴿ الم \* ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة: 1، 2] . ﴿ الم \* الله لا إله إلا هو الحي القيوم \* نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ﴾ [آل عمران: 1-3] . ﴿ المص \* كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ [الأعراف: 1، 2] . ﴿ الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﴾ [إبراهيم: 1] ﴿ الم \* تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ [السجدة: 1، 2] . ﴿ حم \* تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ [فصلت: 1، 2] . ﴿ حم \* عسق \* كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ [الشورى: 1-3]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم»[[10]](#footnote-10).

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4].

هذه شهادة رب العالمين لنبيه على كونه ﴿ على خلق عظيم ﴾ وقد اشتملت سيرته النبوية على ذكر محاسن خُلقه، بل أفردها بعض الحفاظ بالتصنيف، منها على سبيل المثال: كتاب الشمائل المحمدية الحافظ محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبي عيسى (المتوفى: 279هـ). ومنها: كتاب أخلاق النبي وآدابه للحافظ أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني (المتوفى: 369هـ). ومنها: كتاب الشمائل الشريفة للحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ).

**ولا بأس من ذكر بعض ما صح من أخلاقه الحسنة:**

ففي صحيح البخاري عن مسروق، قال: دخلنا على عبد الله بن عمرو، حين قدم مع معاوية إلى الكوفة، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لم يكن فاحشا ولا متفحشا، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أخيركم أحسنكم خلقا»[[11]](#footnote-11).

وفيه أيضا، عن أنس رضي الله عنه، قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ليس له خادم، فأخذ أبو طلحة بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إن أنسا غلام كيس فليخدمك، قال: «فخدمته في السفر والحضر، ما قال لي لشيء صنعته لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا؟»[[12]](#footnote-12).

وفي الصحيحين عن أنس، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير - قال: أحسبه - فطيما، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير، ما فعل النغير» نغر كان يلعب به، فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا.[[13]](#footnote-13)

وفي المسند عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خادما له قط، ولا امرأة له قط، ولا ضرب بيده، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء فانتقمه من صاحبه، إلا أن تنتهك محارم الله عز وجل، فينتقم لله عز وجل، وما عرض عليه أمران أحدهما أيسر من الآخر، إلا أخذ بأيسرهما، إلا أن يكون مأثما، فإن كان مأثما كان أبعد الناس منه»[[14]](#footnote-14).

وفيه أيضا، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[[15]](#footnote-15).

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء».

فهذا منه صلى الله عليه وسلم عفو وحلم وسعة صدر، قلَّ أن يتصف بها أحد من البشر، بل يتسحيل، إذ هي أخلاق نبوة، وطهارة قلب تولاها جبريل أول مرة، كما في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة. فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه وأعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره. فقالوا: إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس: «فكنت أرى أثر المخيط في صدره». ثم تولاها مرة أخرى ملكان، كما جاء عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك. قال: نعم، فكان مما قال: «فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ أتاني رجلان - عليهما ثياب بيض - بطست من ذهب مملوء ثلجا ثم أخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته. فوزنني بهم فوزنتهم ثم قال: زنه بمئة من أمته. فوزنني بهم فوزنتهم ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزنني بهم فوزنتهم..». الحديث.[[16]](#footnote-16)

قوله تعالى: ﴿ ودوا لو تُدهن فيدهنون ﴾ [القلم: 9].

قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله: «فيها مسألتان: المسألة الأولى ذكر المفسرون فيها نحو عشرة أقوال، كلها دعاوى على اللغة والمعنى، أمثلها قولهم: ودوا لو تكذب فيكذبون. ودوا لو تكفر فيكفرون.

وقال أهل اللغة: الإدهان هو التلبيس، معناه: ودوا لو تلبس إليهم في عملهم وعقدهم فيميلون إليك.

وحقيقة الإدهان إظهار المقاربة مع الاعتقاد للعداوة؛ فإن كانت المقاربة باللين فهي مداهنة، وإن كانت مع سلامة الدين فهي مداراة أي مدافعة.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أنه «استأذن على النبي - صلى الله عليه وسلم - رجل فقال: ائذنوا له، بئس أخو العشيرة هو ـ أو ابن العشيرة ـ فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله؛ قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول، فقال لي: يا عائشة؛ إن شر الناس منزلة من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه»[[17]](#footnote-17).

وصحّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثل المداهن في حدود الله، والآمر بها، والناهي عنها، كمثل قوم، استهموا، سفينة من سفن البحر، فصار بعضهم في مؤخر السفينة، وأبعدهم من المرفق، وبعضهم في أعلى السفينة، فكانوا إذا أرادوا الماء وهم في آخر السفينة، آذوا رحالهم، فقال بعضهم: نحن أقرب من المرفق وأبعد من الماء، نخرق دفة السفينة ونستقي، فإذا استغنينا عنه سددناه، فقال السفهاء منهم: افعلوا، قال: فأخذ الفأس فضرب عرض السفينة، فقال رجل منهم رشيد: ما تصنع؟ قال: نحن أقرب من المرفق وأبعد من الماء، نكسر دف السفينة، فنستقي، فإذا استغنينا عنه سددناه، فقال: لا تفعل، فإنك إذا تهلك ونهلك»[[18]](#footnote-18).

المسألة الثانية، قال الله سبحانه: ﴿ لو تُدهن فيدهنون ﴾ [القلم: 9] فساقه على العطف، ولو جاء به جواب التمني لقال فيدهنوا، وإنما أراد أنهم تمنوا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك عطفا، لا جزاء عليه، ولا مكافأة له، وإنما هو تمثيل وتنظير.[[19]](#footnote-19)

الآية الثالثة: ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ [القلم: 16].

فيها مسألتان: المسألة الأولى: ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ [القلم: 16]: ذكر فيه أهل التفسير قولين:

أحدهما أنها سمة سوداء تكون على أنفه يوم القيامة يميز بها بين الناس. وهذا كقوله: ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ [الرحمن: 41].

وقيل: يضرب بالنار على أنفه يوم القيامة يعني وسما يكون علامة [عليه]. وقد قال تعالى: ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ [آل عمران: 106]؛ فهذه علامة ظاهرة. وقال: ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ [طه: 102] ﴿ يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا ﴾ [طه: 103] وهذه علامة أخرى ظاهرة، فأفادت هذه الآية علامة ثالثة وهي الوسم على الخرطوم من جملة الوجه. المسألة الثانية قوله: ﴿ سنسمه ﴾ [القلم: 16]: كان الوسم في الوجه لذوي المعصية قديما عند الناس حتى أنه روي كما تقدم أن اليهود لما أهملوا رجم الزاني واعتاضوا عنه بالضرب وتحميم الوجه، وهذا وضع باطل. ومن الوسم الصحيح في الوجه ما رأى العلماء من تسويد وجه شاهد الزور علامة على قبح المعصية، وتشديدا لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته. وقد كان عزيزا بقول الحق، وقد صار مهينا بالمعصية؛ وأعظم الإهانة إهانة الوجه، وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سببا لحياة الأبد، والتحريم له على النار؛ فإن الله قد حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، حسبما ثبت في الصحيح[[20]](#footnote-20).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ [القلم: 10].

فيه دليل على أن من أكثر الأيمان هان على الرحمن، واتضعت مرتبته عند الناس.

وقد وردت أحاديث تنهى عن الحلف وكثرته، فعن أبي قتادة الأنصاري، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إياكم وكثرة الحلف في البيع، فإنه يُنفّق، ثم يُمحق»[[21]](#footnote-21).

وعن سالم بن عبد الله، عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطاب، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم»، قال عمر: «فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ذاكرا، ولا آثرا»[[22]](#footnote-22).

﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم: 11]

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: «الهماز كثير الهمزة. وأصل الهمز: الطعن بعود أو يد، وأطلق على الأذى بالقول في الغيبة على وجه الاستعارة وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة وفي التنزيل: ﴿ ويل لكل همزة ﴾ [الهمزة: 1] .

وصيغة المبالغة راجعة إلى قوة الصفة، فإذا كان أذى شديدا فصاحبه هماز وإذا تكرر الأذى فصاحبه هماز.

﴿ مَشّاء بنميم ﴾ المشاء بالنميم: الذي ينم بين الناس، ووصفه بالمشاء للمبالغة. والقول في هذه المبالغة مثل القول في هماز وهذه رابعة المذام[[23]](#footnote-23).

وفي الصحيحين عن همام بن الحارث، قال: كان رجل ينقل الحديث إلى الأمير، فكنا جلوسا في المسجد فقال: القوم هذا ممن ينقل الحديث إلى الأمير، قال: فجاء حتى جلس إلينا فقال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يدخل الجنة قتات».[[24]](#footnote-24)

وفيهما أيضا عن ابن عباس، قال: مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بحائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يعذبان، وما يعذبان في كبير» ثم قال: «بلى، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة». ثم دعا بجريدة، فكسرها كسرتين، فوضع على كل قبر منهما كسرة، فقيل له: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: «لعله أن يخفف عنهما ما لم تيبسا» أو: «إلى أن ييبسا».[[25]](#footnote-25)

وعن أسماء بنت يزيد قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بخياركم؟». قالوا: بلى. قال: «الذين إذا رؤوا ذكر الله، أفلا أخبركم بشراركم؟». قالوا: بلى. قال: «المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون بالبراء العنت».[[26]](#footnote-26)

وعن عبد الله بن مسعود، قال: إن محمدا صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أنبئكم ما العَضْهُ؟ هي النميمة، القالة بين الناس».[[27]](#footnote-27)

**حقيقة النميمة:**

قال الإمام الغزالي رحمه الله: «اعلمْ أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينِمُّ قول الغير إلى المقول فيه.كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا. وليست النميمة مختصة به، بل حدّها كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المنقول عنه، أو لم يكن.

بل حقيقة النميمة: إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه. بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يُكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم، أو دفع لمعصية. كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له. فأما إذا رآه يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر. فإن كان ما ينمُّ به نقصا وعيبا في المحكي عنه، كان قد جمع بين الغيبة والنميمة.

فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه، أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرج بالحديث، والخوض في الفضول والباطل.

وكل من حملت إليه النميمة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبّر في إفساد أمرك، أو في ممالأة عدوك، أو تقبيح حالك، أو ما يجري مجراه، فعليه ستة أمور:

**الأول**: أن لا يصدقه، لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ [الحجرات: 6]

**الثاني**: أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله قال الله تعالى: ﴿ **وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ﴾ [لقمان: 17]

**الثالث**: أن يبغضه في الله تعالى فإنه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من يبغضه الله تعالى

**الرابع**: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى: ﴿ **اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾ [الحجرات: 12]

**الخامس**: أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتحقق، اتباعا لقول الله تعالى: ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾[الحجرات: 12]

**السادس**: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه، ولا تحكي نميمته، فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا. فتكون به نماما ومغتابا. وقد تكون قد أتيتَ ما عنه نهيت».[[28]](#footnote-28)

قوله تعالى: ﴿ عُتلّ بعد ذلك زنيم ﴾ [13]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عُتل جواظ مستكبر» وقال وكيع: «كل جواظ جعظري مستكبر» أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث سفيان. وروى الإمام أحمد أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عند ذكر أهل النار: «كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع» تفرد به أحمد. قال أهل اللغة: الجعظري: الفظ الغليظ، والجواظ: الجموع المنوع.

قوله تعالى: ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ والمقصود أنف واحد من المشركين قيل: هو الأخنس بن شريق أو الأسود بن عبد يغوث أو الوليد بن المغيرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذه الآيات:

«منها: أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة؛ ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم؛ فليأخذ حذره فإنه محتاج إلى مخالطتهم لأجل دعوتهم إلى الله تعالى.

ومنها: أنهم يبدون مصالح فيما يأمرون به فلا تطع من كان هكذا ولو أبداها، فإن الباعث لهم على ما يأمرون به هو ما في نفوسهم من الجهل والظلم. وإذا كان الأصل المقتضي للأمر فاسدا لم يقبل من الآمر، فإن الأمر مداره على العلم بالمصلحة وإرادتها، فإذا كان جاهلا لم يعلم المصلحة، وإذا كان الخلق فاسدا لم يردها؛ وهذا معنى بليغ.

الأصل الثاني: «أنه ذكر قسمين المكذبين وذوي الأخلاق الفاسدة وذلك لوجوه: «أحدها: أن المأمور به هو الإيمان والعمل الصالح فضده التكذيب والعمل الفاسد.

والثاني: أن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فكما أنا مأمورون بقبول هذه الوصية والإيصاء بها: فقد نهينا عن قبول ضدها. وهو التكذيب بالحق والترك للصبر، فإن هذه الأخلاق إنما تحصل لعدم الصبر، والصبر ضابط الأخلاق المأمور بها؛ ولهذا ختم السورة به. وقال: ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ فكان في سورة العصر ما بين هنا. فنهاه عن طاعة الذي في خسر ضد الذي للمؤمنين الآمرين بالحق والصبر والذي في خسر هو الكذاب المهين فهو تارك للحق والصبر.

الأصل الثالث: «أن صلاح الإنسان في العلم النافع والعمل الصالح، وهو الكلم الطيب الذي يصعد إلى الله والعمل الصالح جماع العدل، وجماع ما نهى الله عنه الناس: هو الظلم. كما قرر في غير هذا. قال تعالى: ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ والتكذيب بالحق صادر إما عن جهل وإما عن ظلم، وهو الجاحد المعاند.

وصاحب الأخلاق الفاسدة إنما يوقعه فيها أحد أمرين: إما الجهل بما فيها وما في ضدها فهذا جاهل، وإما الميل والعدوان وهو الظلم، فلا يفعل السيئات إلا جاهل بها أو محتاج إليها متلذذ بها وهو الظالم. فنهاه عن طاعة الجاهلين والظالمين.

وقوله: ﴿ ودوا لو تدهن ﴾ الآية. أخبر أنهم يحبون ادهانه ليدهنوا فهم لا يأمرونه نصحا؛ بل يريدون منه الادهان ويتوسلون بادهانه إلى ادهانهم ويستعملونه لأغراضهم في صورة الناصح؛ وذلك لما نشأ من تكذيبهم بالحق فإنه لم يبق في قلوبهم غاية ينتهون إليها من الحق؛ لا في الحق المقصود ولا الحق الموجود لا خبرا عنه ولا أمرا به ولا اعتقادا ولا اقتصادا». (ا.ه)[[29]](#footnote-29).

قوله تعالى: ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (17) ﴾ إلى قوله: ﴿ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (33) ﴾

عن عكرمة، في قوله: ﴿ لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ [القلم: 24] قال: «هم ناس من الحبشة كانت لأبيهم جنة كان يطعم المساكين منها، فلما مات أبوهم، قال بنوه: والله إن كان أبونا لأحمق حين يطعم المساكين، فأقسموا ليصرمنها مصبحين، ولا يستثنون، ولا يطعمون مسكينا».[[30]](#footnote-30)

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثه محمدا صلى الله عليه وسلم إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة».[[31]](#footnote-31)

**تنزيل محور السورة على أرض الواقع**

أولا: وجود شبه بين مطلع السورتين ـ العلق والقلم ـ يذكرنا بقيمة العلم، وقد ذكرنا هذا عند ذكر المناسبة بين السورتين. مما يؤكد لنا أن العلم هو أول ما تحتاجه الأمة الإسلامية للقيام بالتكاليف الشرعية، والامتثال لأوامر الله جل وعلا، والنهوض نحو العزة والرفعة وبناء الحضارة.

فإذا استهلت سورة العلق بـ: ﴿ اقرأ ﴾ وذُكر فيها شأن القلم في قوله: ﴿ الذي علم بالقلم ﴾.. فهنا في مطلع هذه السورة يؤكد ذلك بالقسم الملفت للمقسَم به الذي هو: القلم. ﴿ ن والقلم ﴾.. وقد ذكرنا في سورة العلق ما فيه الكفاية في هذا الباب.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله عن هذا المطلع من السورة: «وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية، فهي دالة على كمال قدرته سبحانه وكمال علمه وكمال حكمته وعنايته بخلقه ولطفه وإحسانه، وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدللت بها على المبدأ والمعاد والخلق والأمر والتوحيد والرسالة، فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن القرآن كلام الله تكلم به حقاً وأنزله على رسوله وحياً، وبلغه كما أوحي إليه صدقاً، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها، وبالله التوفيق.

**فصل**

ثم أقسم سبحانه ب ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيّد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك، وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيباً يبرئ بإذنه من أنواع الألم، ... وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم والقلم يريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت».[[32]](#footnote-32)

ـ ومنها نستفيد أن التعلم يبدأ بمعرفة الحروف، وحسن النطق بها، قبل تركيبها.

وقد تنبّه لهذا الإمام البخاري في صحيحه فقال: باب العلم قبل القول والعمل.

لقول الله تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ [محمد: 19] فبدأ بالعلم «وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة» وقال جل ذكره: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر: 28] وقال: ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت: 43] ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ [الملك: 10] وقال: ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [الزمر: 9] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» [ص:25] وإنما العلم بالتعلم «وقال أبو ذر: «لو وضعتم الصمصامة على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها» وقال ابن عباس: ﴿ كونوا ربانيين ﴾ [آل عمران: 79] « حلماء فقهاء، ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»[[33]](#footnote-33).

ومنها: أن الداعية إلى الله، مهما كان عليه من خُلق وصدق ونزاهة، فإن أعداء الدين سيتهمونه في عقله ودعوته. ولذلك نقرأ في مطلع السورة: ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: 2]. ونقرأ في ختامها: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52) ﴾.. وهكذا تُسجل لنا هذه الآيات الاتهامات الباطلة التي نسبها كفار قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين دعاهم للتوحيد، وكأنها إشارة إلى أن كل من سار على نهج دعوة النبي سيناله قسط من هذه الاتهامات .. تارة مجنون.. وتارة منغلق متشدد .. وتارة معقَّد نفسيا.. إلخ.

ومنها: أن الداعية ـ على الخصوص ـ وكل مسلم ـ عموما ـ يجب أن يتحلى بالأخلاق الحسنة، ويجتنب الأخلاق السيئة المقيتة، ولا يطع المتخلق بها، مثل: كثرة الحلف، والمهانة، والهمز، والنميمة، ومنع الخير، والاعتداء، وارتكاب الإثم، ومقابلة نعمة الله بكفرانها، وتكذيب أخبار القرآن. لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) ﴾ [القلم: 10 - 15].

والداعية يصدع بالحق. فعن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: «صبحكم ومساكم»..[[34]](#footnote-34)

كما أن الداعية لا يأنف من مجالسة المساكين والفقراء، ويقضي بعض حوائجهم الدنيوية، ويمشي مع المظلوم ليأخذ له حقه. ففي الصحيحين واللفظ لمسلم. عن أنس، أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال: «يا أم فلان انظري أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك» فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها.

وعنه أيضا رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض ويشهد الجنائز ويركب الحمار ويجيب دعوة العبد. وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف وعليه إكاف من ليف».

وقال أيضا: «كان النّبي صلى الله عليه وسلم يُدعى إلى خبز الشعير والإهالة السّنخة فيجيب. ولقد كان له درع عند يهوديّ فما وجد ما يفكّها حتى مات».

وقال أيضا: «لم يكن شخص أحبّ إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك».

ولو تتبعنا ذكر تواضعه صلى الله عليه وسلم لطال الكلام، فأين المسلمون اليوم من هذه الأخلاق الحسنة، والتي هي في حد ذاتها دعوة صامتة، تؤثر في المدعو قبل دعوته أو التحدث معه.

فما أحوجنا للتشبث بالأخلاق الحسنة، خاصة إن اختارنا الله تعالى لدعوته حتى نكون أسوة وقدوة للمدعوين.

وبمناسبة ذكر قصة أصحاب الجنة، يقول الشيخ السعدي رحمه الله:

«وحاصل هذا، أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سيئ الأخلاق، خصوصًا الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر على الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره لقوله عنه: ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ ﴾ أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها- فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة»[[35]](#footnote-35).

فنستفيد منها ما يلي:

ـ ما الغنى والجاه والمال إلا ابتلاء، فلا ينبغي الطغيان بها، فإن مصير كل من طغى إلى هلاك وعذاب في الدنيا قبل الآخرة.

ـ المال والغنى والترف من أسباب الإعراض عن قبول الدعوة، وهذا نلاحظه بدءً من أول سورة نزلت على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث نقرأ: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق: 6، 7]. وهنا في هذه السورة نقرأ سبب إعراض هذا المشرك وهو: ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [القلم: 14، 15].. وقال عن أصحاب الجنة أنهم اعترفوا قائلين: ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ [القلم: 31].. وطغيانهم تمثَّل في وكونهم أرادوا حرمان المساكين من خيرات الجنة... إلخ.

وفي هذا تنبيه لكل من طغى واستنكف عن طاعة الله فأعرض عنه بماله وجاهه، سواء كان فردا ـ كحال الوليد بن المغيرة أو أبي جهل ـ أو جماعة ـ كحال أصحاب الجنة ـ والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إذ هذه سُنَّة الله تعالى في كل من عمل مثل هؤلاء، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ [الكهف: 55]

فليحذر العبد ـ والجماعة وكل أمة من الأمم ـ أن يكون المال والغنى سببا للطغيان والتنكب عن الصراط المستقيم، فيحل بهم ما حل بمن سبقهم.

ـ وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ.. ﴾ [القلم: 35، 36]. نستفيد منها:

ـ أولا: وصف الله تعالى غير المسلمين بأنهم مجرمون، وهذا الوصف هو الوصف الشرعي الرباني، الذي يجب على المسلم أن لا يستحيي من ذكره. يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في الآية: «أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء؛ ولهذا قال ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾! أي: كيف تظنون ذلك؟»[[36]](#footnote-36).

ـ ثانيا: في الآية رد على من يزعم أنه لا فرق بين المسلمين وغيرهم من البشر اللادينيين، أو ذوي ديانات باطلة، وانحرافات عقائدية، ويزعمون أن الكل سواسية، تجمعهم الإنسانية، ومن ثَمّ، فالمسلم كاليهودي، وكالنصراني، وكالملحد، .. الكل في آخر المطاف: إنسان!! وقد قال سبحانه هنا بكل جلاء: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: 35، 36]. وقال في موضع آخر: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: 18]. وقال أيضا: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: 21].

ـ ثالثا: وصفُ غير المسلمين بأنهم مجرمون، يدل دلالة قطعية أن الكفر جريمة بميزان الله تعالى. وهذا ما لا يُعرف في القوانين اليوم.

ـ بمناسبة قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [القلم: 37 - 41].. يمكننا أن نستفيد من هذه الآيات، أسلوبَ الحوار والجدل، حيث ما من استفهام إلا وتجده مفحما ومخرصا للخصم. فعلى الدعاة أن يكونوا على دراية في كيفية إظهار الحجة، وإفحام الخصم، من خلال تطبيق قواعد المناظرة والجدال. وأن يكون ذلك في نطاق الأدب والهدوء، بغض النظر عن استسلام الخصم أو إعراضه وعناده. فإن الله تعالى قال لنبيه: ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 99]، وقال جل وعلا: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى: 48]، وقال سبحانه: ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴾ [عبس: 5 - 7].

ـ قوله تعالى: ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ [القلم: 42].. ذكرنا من قبل تفسير الآية بالحديث الصحيح، وفيه: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقا واحدا». وفي رواية عند الحاكم في مستدركه (4/ 626): «فيقول: هل بينكم وبين الله من آية تعرفونها؟ فيقولون: نعم الساق، فيكشف عن ساق فيخر ساجدا أجمعون ولا يبقى أحد كان سجد في الدنيا سمعة ولا رياء ولا نفاقا إلا على ظهره طبق واحد كلما أراد أن يسجد خر على قفاه..». الحديث.

والقاعدة السليمة عند السلف في تفسير آيات الصفات هي: الإيمان بها، مع إثباتها وتفويض الكيف لله. وكما قال الإمام مالك رحمه الله لما سأله رجل عن قوله تعالى: ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [طه: 5] قال له: كيف استوى؟ قال يحي بن يحيى ـ راو الحديث ـ: فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعا. فأمر به أن يخرج»[[37]](#footnote-37).

ـ واستدل شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ [القلم: 43] على أن تارك الصلاة كافر. حيث قال: « ولهذا إنما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار كقوله: ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وغيرهما في الحديث الطويل حديث التجلي: «أنه إذا تجلى تعالى لعباده يوم القيامة سجد له المؤمنون وبقي ظهر من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة مثل الطبق لا يستطيع السجود». فإذا كان هذا حال من سجد رياء فكيف حال من لم يسجد قط؟ وثبت أيضا في الصحيح: «أن النار تأكل من ابن آدم كل شيء إلا موضع السجود فإن الله حرم على النار أن تأكله». فعلم أن من لم يكن يسجد لله تأكله النار كله. وكذلك ثبت في الصحيح: «أن النبي صلى الله عليه وسلم يعرف أمته يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء». فدل ذلك على أن من لم يكن غرا محجلا لم يعرفه النبي صلى الله عليه وسلم فلا يكون من أمته»[[38]](#footnote-38).

ـ وبمناسبة قوله تعالى:﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم: 44، 45].. فقد جاء في الحديث: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾»[[39]](#footnote-39).

ـ وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) ﴾.. قال الإمام الرازي رحمه الله: «فيه مسألتان: المسألة الأولى: العامل في «إذ» معنى قوله: كصاحب الحوت. يريد لا تكن كصاحب الحوت حال ندائه، وذلك لأنه في ذلك الوقت كان مكظوما فكأنه قيل: لا تكن مكظوما. المسألة الثانية: صاحب الحوت يونس عليه السلام، إذ نادى في بطن الحوت بقوله: ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء: 87]، وهو مكظوم مملوء غيظا من كظم السقاء إذا ملأه، والمعنى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة، فتبلى ببلائه»[[40]](#footnote-40).

أقول: هذا أول نبي ذُكر حسب ترتيب نزول السور، كما أن أول سورة ذكرت باسم نبي حسب ترتيب المصحف هي: سورة يونس. وكأن أول نبيّ أمِر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ العبرة منه مع قومه هو: يونس عليه السلام.

ونلاحظ في هذه السورة ـ القلم ـ لم يُذكر فيها باسمه ـ يونس ـ وإنما بـ: «صاحب الحوت». ومعنى الصاحب في اللغة هو: الذي يصحب غيره، أي يكون معه في بعض الأحوال أو في معظمها، وإطلاقه على يونس، لأن الحوت التقمه، ومكث ما شاء الله أن يمكث في بطنه ثم قذفه، فصار (صاحب الحوت) لقبا له لأن تلك الحالة معية قوية. والمراد بالحوت: النون. كما ذُكر في سورة الأنبياء: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 87].

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن مَتّى».[[41]](#footnote-41)

وصح عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لما أتى على ثنية هرشى، فقال: «أي ثنية هذه؟» قالوا: ثنية هرشى، قال: «كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة عليه جبة من صوف، خطام ناقته خلبة وهو يلبي».[[42]](#footnote-42)

وعن سعد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له».[[43]](#footnote-43)

فقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الحوت... ﴾: يحذر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم مِن أن يفعل كما فعل صاحب الحوت ـ يونس بن متى، عليه السلام ـ حين ذهب مغاضبا على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات. ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء: 87] . قال الله ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ [الأنبياء: 88]، وقال تعالى: ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [الصافات: 143، 144] وقال هاهنا: ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ أي: مغموم ومكروب.

ـ فإذا كان هذا تحذيرا للنبي صلى الله عليه وسلم من أن يضجر من قومه كما ضجر يونس عليه السلام فعاقبة به بأن ابتلاه بالالتقام الحوت له، فعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يتأسوا بهذا التوجيه الرباني، فيصبروا على قومهم، ويتحمَّلوا مشاق الدعوة، ولا ييأسوا من استجابة دعوتهم، وأن يعلموا أن العاقبة للمتقين الصابرين، وأن هذه سنة الله تعالى في خلقه، فكل الأنبياء عليهم السلام أوذوا من قِبل أقوامهم، تارة باللسان ـ كسبهم وشتمهم والسخرية بهم ورميهم بالجنون ـ وتارة بالقتل والقتال .. وكما قال ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم حين أخبره بنزول الوحي عليه: «لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي».[[44]](#footnote-44)

ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَما هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (52) ﴾..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وختمها ـ أي سورة القلم ـ بالأمر بالصبر الذي هو جماع الخلق العظيم في قوله: ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية. والصبر على الأول أشد، وصاحب الحوت ذهب مغاضبا لربه لأجل الأمر السماوي، ولهذا قال: ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ إلخ. فآخرها منعطف على أول ما في قوله: ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ وقوله: ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ والإزلاق بالبصر هو الغاية في البغض والغضب والأذى.

فالصبر على ذلك نوع من الحلم، وهو احتمال أذى الخلق وفي ذلك ما يدفع كيدهم وشرهم. وما ذكره في قصة أهل الجنة من أمر السخاء والجود وما ذكره هنا من الحلم والصبر: هو جماع الخلق الحسن كما جمع بينهما في قوله: ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ الآية كما قيل:

**بحلم وبذل ساد في قومه الفتى ... وكونك إياه عليك يسير**

فالإحسان إلى الناس بالمال والمنفعة واحتمال أذاهم كالسخاء المحمود، كما جمع بينهما في قوله: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ففي أخذه العفو من أخلاقهم احتمال أذاهم وهو نوعان: ترك ما لك من الحق عليهم، فأخذ العفو أن لا تطلب ما تركوه من حقك، وأن لا تنهاهم فيما تعدوا فيه الحد فيك، وإذا لم تأمرهم ولم تنههم فيما يتعلق»[[45]](#footnote-45).

فيستفاد من هذه الآية الكريمة، أن أعداء الدين يكرهون سماع القرآن، وسماع الوعظ والإرشاد، لدرجة أنهم يتمنون إزهاق روح الداعي والذاكر والتالي لكتاب الله تعالى. وهكذا كان كفار قريش حين يُسمعهم النبي كلام الله تعالى، أو يَسمعونه يقرأ عند البيت الحرام، يكادون يصيبونه بأعينهم من شدة الحنق والبغض له وحسده!!

ـ وبمناسبة هذه الآية، يقول ابن القيم رحمه الله: «وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ إنه الإصابة بالعين، فأرادوا أن يصيبوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه قوم من العائنين، وقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حجته! وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيعينها ثم يقول لخادمه: خذ المكتل والدرهم وآتنا بشيء من لحمها، فما تبرح حتى تقع فتنحر.

وقال الكلبي: «كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ثم يرفع جانب خبائة فتمر به الإبل، فيقول لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلا حتى يسقط منها طائفة! فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعين ويفعل به كفعله في غيره، فعصم الله تعالى رسوله وحفظه وأنزل عليه: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾. هذا قول طائفة.

وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة: ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن الكريم نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك. قال الزجاج: «يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك» وهذا مستعمل في الكلام يقول القائل: «نظر إلي نظرة قد كان يصرعني»، قال: ويدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن الكريم، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، فيحدون إليه النظر بالبغضاء، النظر الذي يؤثر في المنظور.

قلت ـ ابن القيم ـ: النظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون بسببه شده العداوة والحسد فيؤثر نظره فيه كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة، فإن العدو إذا غاب عن عدوه قد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قبلا اجتمعت الهمة عليه وتوجهت النفس بكليتها إليه، فيتأثر بنظره، حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يحم، ومنهم من يحمل إلى بيته، وقد شاهد الناس من ذلك كثيرا. وقد يكون سببه الإعجاب، وهو الذي يسمونه بإصابة العين، وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين، وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه فيصاب بذلك»[[46]](#footnote-46).

ـ قلت: وقد وردت عدة أحاديث صحيحة في الإصابة بالعين، وطريقة الاسترقاء منها،

من ذلك: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «العين حق». أي الإصابة بها ثابتة موجودة ولها تأثير في النفوس.[[47]](#footnote-47)

وعن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا».[[48]](#footnote-48)

قال الإمام أبو عبد الله المازري: «أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقالوا العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة»[[49]](#footnote-49).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين، ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة».[[50]](#footnote-50)

وإلى هنا نكون قد انتهينا من ذكر بعض المقاصد العلمية والعملية المستنبطة والمستفادة من سورة القلم، آملين من الله تعالى التوفيق للعلم مع إخلاصه لوجهه الكريم.

هذا وما كان فيه من صواب فمن الله تعالى، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله تعالى ورسوله بريئان منه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

1. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (3/ 110) [↑](#footnote-ref-1)
2. مجموع الفتاوى (16/ 61) [↑](#footnote-ref-2)
3. التحرير والتنوير (29/ 57 ـ 58) [↑](#footnote-ref-3)
4. صحيح البخاري (6/ 159) [↑](#footnote-ref-4)
5. صحيح البخاري (6/ 159) [↑](#footnote-ref-5)
6. بحمد الله تيسر لنا طبع كتابي: «**حصول المأمول في بيان تناسب السور حسب ترتيب النزول**». وهو أول بحث ينشر في ذكر المناسبة بين السور حسب ترتيب النزول. والحمد لله. [↑](#footnote-ref-6)
7. حصول المأمول في بيان تناسب السور حسب ترتيب النزول: 35 [↑](#footnote-ref-7)
8. ذهب العلامة ابن عاشور رحمه الله إلى أن السورة الثانية بعد العلق هي المزمل ثم المدثر، لذا أشار إليهما. وقد بينتُ أنه لا مانع من أن تكون «ن والقلم» هي الثانية وليست الرابعة. [↑](#footnote-ref-8)
9. التحرير والتنوير (29/ 58 ـ 59) [↑](#footnote-ref-9)
10. تفسير ابن كثير تحقيق سلامة (1/ 160) [↑](#footnote-ref-10)
11. صحيح البخاري (8/ 12) [↑](#footnote-ref-11)
12. صحيح البخاري (4/ 11) [↑](#footnote-ref-12)
13. صحيح البخاري (8/ 45)، صحيح مسلم (1/ 457) [↑](#footnote-ref-13)
14. مسند أحمد طبعة الرسالة (40/ 37) [↑](#footnote-ref-14)
15. مسند أحمد طبعة الرسالة (14/ 513) [↑](#footnote-ref-15)
16. تاريخ الطبري (2/ 165)، البداية والنهاية (2/ 335)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (4/ 59) [↑](#footnote-ref-16)
17. صحيح البخاري (8/ 17)، صحيح البخاري (8/ 31)، صحيح مسلم (4/ 2002) [↑](#footnote-ref-17)
18. صحيح ابن حبان - مخرجا (1/ 537) [↑](#footnote-ref-18)
19. أحكام القرآن لابن العربي طبعة العلمية (4/ 306) [↑](#footnote-ref-19)
20. أحكام القرآن لابن العربي طبعة العلمية (4/ 306 ـ 307) [↑](#footnote-ref-20)
21. صحيح مسلم (3/ 1228) [↑](#footnote-ref-21)
22. صحيح مسلم (3/ 1266) [↑](#footnote-ref-22)
23. التحرير والتنوير (29/ 72) [↑](#footnote-ref-23)
24. صحيح مسلم (1/ 101)، صحيح البخاري (8/ 17) [↑](#footnote-ref-24)
25. صحيح البخاري (1/ 53)، صحيح مسلم (1/ 240) [↑](#footnote-ref-25)
26. صحيح الأدب المفرد (ص: 133) [↑](#footnote-ref-26)
27. صحيح مسلم (4/ 2012) [↑](#footnote-ref-27)
28. إحياء علوم الدين (3/ 156) [↑](#footnote-ref-28)
29. مجموع الفتاوى (16/ 64 ـ 66) [↑](#footnote-ref-29)
30. جامع البيان للطبري طبعة هجر (23/ 172) [↑](#footnote-ref-30)
31. تفسير ابن كثير تحقيق سلامة (8/ 195). [↑](#footnote-ref-31)
32. التبيان في أقسام القرآن (ص: 205 ـ207) [↑](#footnote-ref-32)
33. صحيح البخاري (1/ 24) [↑](#footnote-ref-33)
34. صحيح مسلم (2/ 592) [↑](#footnote-ref-34)
35. تيسير الكريم الرحمن (ص: 879) [↑](#footnote-ref-35)
36. تفسير ابن كثير تحقيق سلامة (8/ 198) [↑](#footnote-ref-36)
37. الأسماء والصفات للبيهقي (2/ 305). [↑](#footnote-ref-37)
38. مجموع الفتاوى (7/ 611 ـ 612) [↑](#footnote-ref-38)
39. مسند أحمد مخرجا (28/ 547) [↑](#footnote-ref-39)
40. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (30/ 616) [↑](#footnote-ref-40)
41. صحيح البخاري (4/ 159). [↑](#footnote-ref-41)
42. صحيح مسلم (1/ 152). [↑](#footnote-ref-42)
43. سنن الترمذي ت شاكر (5/ 529) [↑](#footnote-ref-43)
44. صحيح البخاري (1/ 7)، صحيح مسلم (1/ 140) [↑](#footnote-ref-44)
45. مجموع الفتاوى (16/ 70 ـ 71) [↑](#footnote-ref-45)
46. بدائع الفوائد (2/ 231 ـ 232) [↑](#footnote-ref-46)
47. صحيح البخاري (7/ 132)، صحيح مسلم (4/ 1719) [↑](#footnote-ref-47)
48. صحيح مسلم (4/ 1719) [↑](#footnote-ref-48)
49. شرح النووي على مسلم (14/ 171) [↑](#footnote-ref-49)
50. صحيح البخاري (4/ 147) [↑](#footnote-ref-50)